المقاصد

دورية ثقافية تصدر عن جمعية المقاصد الخيرية الاسلامية في بيروت

عدد خاص



دراسات في العلوم الإسلامية

مجلّة محكّمة

تصدرها كلية الدراسات الإسلامية

صيف وخريف ١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م



جامعة المقاصد في بيروت

العمران الإسلامي والمملوكي في طرابلس



جمانة ديب بغدادي
باحثة في مركز ‹إحياء التراث الوثائقي والثقافي لمدينة طرابلس›

المقاصد دورية ثقافية

اهتم الإنسان منذ القدم بتأمين المسكن له، لحماية نفسه من العوامل الطبيعية، والحيوانات البرية، ولتأمين الراحة والخصوصية، فسَكَن المغاور والكهوف ومن ثم قام ببناء البيوت الخشبية والحجرية. ومع الأيام ازداد اهتمامه بتجميل البيت، فاختلفت وتنوعت أشكال البيوت. وكان لكل بيئة نماذج خاصة بها تتوافق وظروفها المناخية والطبيعية. فاستخدم الإنسان أساليب معمارية فطرية لمقاومة قسوة المناخ، وهذه الأساليب هي نتاج التفاعل بين عنصرين أساسيين: الأول: هو الثروات الطبيعية من المواد الخام المتوفرة في البيئة، والثاني: هو المناخ السائد في المنطقة وذلك في وجود أنشطة معينة تمارس داخل وحول هذه المباني، وفي إطار هيكل اجتماعي يؤثر في أساليب التصميم.

إن فكرة التصميم البيئي في العمارة ليست بجديدة، بل يمكن ملاحظتها أيضاً في مأوى الكائنات الأخرى كالحشرات والطيور والثدييات الصغيرة، فلقد أودع الله في العنكبوت مهارات خاصة، تمكنه من نسج الخيوط بأسلوب هندسي حاذق وبأشكال مختلفة تتناسب مع طبيعة المكان الذي ينسج فيه بيته، كما أوحى الله ﷻ للنحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرش الإنسان، وبيوت النحل هذه محكّمة في غاية الدقة والإتقان في تسديها ورصها، فيستطيع بالشكل المسدس هذا إقامة أكبر عدد من الخلايا في أقل مساحة متاحة.

بالإضافة الى تأثير البيئة هناك المؤثرات الدينية، التي أعطت العمارة ميزات خاصة بها، فكان للشريعة الإسلامية تأثيرها على العمارة، فجاءت متميزة عن سائر الطرز المعمارية الأخرى. ولأهمية المأوى بالنسبة للإنسان وارتباطه بالشريعة، حاولت من خلال هذه الدراسة إلقاء نظرة على نموذج من البيوت الإسلامية التي تعود إلى العهد المملوكي، ومميزات تلك البيوت التي كانت تتوافق مع الشريعة، مقارنةً بها البيوت الحديثة التي طغى عليها النموذج الغربي، إلا أن ذلك لم يكن بالأمر السهل وخصوصاً أن تلك البيوت أصبحت شبه معدومة والدراسات حولها قليلة، فإن أي تقصير يعود لهذه الأسباب.

أرجو من الله العلي القدير أن أكون قد وفقت فيما قصدت.

وعلى الله قصد السبيل

القسم الأول: لمحة عن تاريخ طرابلس والمرحلة المملوكية

تعتبر مدينة طرابلس اللبنانية أو طرابلس الشام على حد تسمية مؤرخي العرب تمييزاً لها عن طرابلس الغرب، من بين المدن العربية الهامة المطلة على البحر الأبيض المتوسط، التي لعبت دوراً خطيراً في تاريخ الشرق الأدنى في العصور الوسطى، وقد ساعد موقع هذه المدينة في منتصف الساحل الشرقي لحوض البحر الأبيض المتوسط تقريباً، بالإضافة إلى إمكاناتها الاقتصادية الوفيرة، على الازدهار الحضاري الذي أصابته في العصر الإسلامي، وعلى المكانة الرفيعة التي تبوأتها هذه المدينة العظيمة بوجه خاص في عصر دولتي المماليك البحرية والشراكسة.

وقد وصفها ابن بطوطة في القرن الـ ٨هـ/ ١٤م في رحلته بقوله: «**هي إحدى قواعد الشام وبلدانها الضخام، تخترقها الأنهار وتحفُّها البساتين والأشجار، ويكنُفُها البحر بمرافقه العميمة، والبرّ بخيراته المقيمة. ولها الأسواق العجيبة، والمسارح الخصيبة، والبحر على ميلين منها وهي حديثة البناء. وأما طرابلس القديمة فكانت على ضفة البحر، وتملكها الروم[1] زماناً، فلما استرجعها الملك الظاهر[1] خُربت، واتُخذت هذه الحديثة**»[2].

(١) صحتها: الصليبيون.

تمد مدينة طرابلس، عاصمة منطقة شمال لبنان، جذورها العميقة القدم في تاريخ عريق، يزيد على ثلاثة آلاف سنة. وهي متحف فني غني بالمعالم والمراكز الأثرية المتعددة العهود والحضارات المتتالية.

أسس الفينيقيون في القرن السابع قبل الميلاد، مدينة طرابلس على امتداد الشاطئ الشمالي الشرقي لشبه جزيرة الميناء، وأطلقوا عليها اسم «آثر»، وكانت تتألف يومئذٍ من ثلاثة أحياء ضربت حولها الأسوار[3].

أخذت طرابلس اسم المدينة المثلثة «تريبوليس»، ومن بعدها عرَّبها الفاتحون. ولم تلبث طرابلس مع الأيام، لأهمية موقعها الاستراتيجي أن أصبحت عاصمة الإتحاد الفينيقي، ومقراً لمؤتمره السنوي العام الذي كان يضم ممثلين عن سكان جميع المدن الفينيقية[4].

كانت طرابلس تابعة للإمبراطورية البيزنطية خلال الفتح العربي الإسلامي. وهناك روايتان حول فتح طرابلس: الأولى: نجدها في كتاب

(١) صحتها: الملك المنصور قلاوون.

(٢) ابن بطوطة (أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي): رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م (ص٦٤)، انظر أيضاً: شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي (ابن بطوطة): رحلة ابن بطوطة المسمّاة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، م١، قدَّم له وحقَّقه ووضع خرائطه وفهارسه: عبد الهادي التازي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، سلسلة «التراث»، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م (ص٢٦٥)؛ وعمر عبد السلام تدمري: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١م (٢/ ٥٠٧)؛ ومحمد كامل بابا، طرابلس في التاريخ، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م (ص١١٨)؛ وسميح وجيه الزين، تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، دار الأندلس، بيروت، ط١، ١٩٦٩م (ص١٥٣).

(٣) عمر عبد السلام تدمري، وظائف ومضامين النقوش التأريخية والتزيينيّة على عمارة طرابلس المملوكية، أبجديات (حولية سنوية تصدر عن مكتبة الإسكندرية، مركز الخطوط)، العدد الرابع، ٢٠٠٩م (ص٢٩)؛ انظر أيضاً: السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٩٦٧م (ص١٨ ـ ١٩).

(٤) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، دار البلاد، لبنان، ط١، ١٩٧٨م (١/ ١٩ ـ ٢٠).

«فتوح الشام» المنسوب للمؤرخ الواقدي المتوفى سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م. فقد جاء فيه أن فتح طرابلس تم على يد راهب مسيحي من حلب يدعى «يوقنا» اعتنق الإسلام وصار يُعرف بعبد الله، وأن الفتح كان عن طريق خدعة قام بها[١]. إلا أن هذه الرواية غير معتمدة عند المؤرخين.

كانت طرابلس تفوق معظم مدن الشام بقوة تحصيناتها، والبحر يوفر لها الحماية الطبيعية من جهات ثلاث، يحميها خندق عظيم وأسوار عالية من الجهة الشرقية المطلة على التلال. وقد لعبت مجموعة الجزر قرب شاطئها دوراً كبيراً في تأمين المؤونة والاتصال أثناء حصارها.

بقيت طرابلس آخر معقل للبيزنطيين في سواحل الشام فكان لا بد من فتحها، فوجه معاوية القائد سفيان بن مجيب الأزدي لفتحها، في خلافة عثمان بن عفان، فحاصرها وناوش حصونها الثلاث فلم يستطع فتحها. أشار عليه معاوية ببناء حصن قريب منها يأوي إليه ليلاً وينطلق منه غازياً في النهار. بنى سفيان الحصن وشدد الحصار واستعان بالكثير من الصبر والحنكة، وقطع الإمدادات عنها حتى رضخت. وقد أشعل الروم النار في جنباتها عند هروبهم وكان ذلك عام ٢٥هـ/ ٦٤٦م[٢].

في عهد الدولة الأموية، كان اهتمام معاوية بطرابلس بصورة خاصة، لكونها الميناء الطبيعي لمنطقتي دمشق وحمص، ولكونها قريبة من جبال الأرز حيث يسهل استغلال أخشابها في صناعة المراكب. وقد استعان بغير العرب من الروم والفرس واليهود لإعمارها، وقد كان يوجه إليها في كل عام جماعة كثيفة من الجند المسلمين يشحنها بهم ليدفعوا عنها العدو في حال إغارته عليها. وولى عليها عاملاً من قبله. وكان يستبدل هذه القوة مرتين في العام الواحد لتظل معنويات الجند مرتفعة[٣].

(١) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، مرجع سابق (ص٦٢).
(٢) المرجع السابق (ص٦٨ ـ ٧٠).
(٣) المرجع السابق (ص٧٢ ـ ٧٣).

بعد سقوط الدولة الأموية، دخلت طرابلس في فلك الدولة العباسية وأصبحت تابعة لإمارة عبد الله بن علي سنة ١٣٢هـ. واستمر تعيين الولاة عليها إلى جانب تعيين قائد للجند، كما كان متبعاً في الدولة الأموية[١].

ظلت طرابلس تابعة للدولة العباسية حتى سنة ٢٦٤هـ/ ٧٧٨م. حيث دخلت في حوزة «أحمد بن طولون» الذي أسس الدولة الطولونية في مصر، وقام في هذه السنة بضم بلاد الشام إليه وانتزعها من الخليفة العباسي «المعتمد». وفي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م سقطت الدولة الطولونية[٢].

وقد كان لطرابلس دور كبير في فتوحات العرب البحرية وغزواتهم، وظلت البحرية في ميناء طرابلس تشكل قوة رادعة للدفاع عن ساحل الشام، واستعصت المدينة على أباطرة الدولة البيزنطية الذين جاؤوها بأنفسهم، وقاومتهم لوحدها من بين كثير من مدن الشام التي استسلمت لهم، وكان أول أولئك الأباطرة «نقفور فوكاس»، الذي جاءها وهي تابعة للدولة الأخشيدية[٣].

بعد سقوط الدولة الأخشيدية سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٩م وقيام الدولة الفاطمية خضعت طرابلس للفاطميين وتابعت مقاومتها لأباطرة البيزنطيين.

كانت طرابلس في ذلك الوقت إمارة مستقلة في ظل حكامها من أسرة بني عمار، وحافظت على استقلالها في ظل الموجة السلجوقية، التي غمرت معظم بلاد الشام وحاولت احتلال طرابلس أكثر من مرة.

كذلك حافظ بنو عمار على استقلال إمارتهم عن الفاطميين، منذ أعلنوا ذلك على لسان أمين الدولة أبو طالب (٤٦٢هـ).

كان أمراء بني عمار أسرة من العلماء والحكماء، اشتهروا بالعدل والتسامح ورحابة الصدر والمرونة، وكانوا ألمع أمراء العرب وأوسعهم جاهاً

(١) عمر تدمري، المرجع السابق (ص١١٩).
(٢) المرجع السابق (ص١٤٠).
(٣) المرجع السابق (ص١٧٤).

وثراء، فعرفت المدينة في أيامهم مرحلة من الطمأنينة والهناء والمسرة والازدهار، مما حمل بعض المناطق الساحلية على الانضمام الى طرابلس طلباً للعدالة التي بلغت ذروتها وللازدهار الذي بلغ أوجّه في مرافق العمران، والاقتصاد، والزراعة، والصناعة ولا سيما صناعة الورق الذي كان متفوقاً في جودته.

وفضلاً عن ذلك كله، كان أمراء بني عمار يحيطون العلماء والأدباء بالعطاء والتكريم، فارتفع مستوى العلم والثقافة، وبلغ أوجّه بإنشاء مدرسة ومكتبة ذاع صيتها في ذلك الزمان، واعتبرت من أرقى المكتبات العربية قاطبة، إذ كانت تحتوي على أكثر من تسعمئة ألف مجلد، تبحث في شتى المواضيع العلمية والأدبية، كتبت جميعها بالخط اليدوي، وكانت قيمتها لا تقدر بثمن مما حدا بأشهر الأدباء والشعراء العرب وغيرهم إلى قصد المدينة، وزيارة مكتبتها التي ذاع صيتها حتى سميت: دار العلم[1].

وصلت أولى الحملات الصليبية إلى بلاد الشام عام ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م، في وقت ساد فيه التفكك والصراعات والضعف، حيث توزعت المدن بين حكام وأمراء يخشى كل منهم الآخر ويكيد له. فاستطاع الصليبيون دخول بلاد الشام، واحتلال القسم الساحلي بكامله، ومن ثم الاستيلاء على بيت المقدس (٤٩٢هـ/ ١٠٩٩م)، وهو ما عجز عنه البيزنطيون في جميع حملاتهم منذ الفتح العربي الإسلامي.

وقد بدأت الحملات الصليبية على طرابلس مع الكونت «ريمون دي تولوز» المعروف بالمصادر العربية بـ«لكن اصطبل الصنجيلي» الذي قاد ثلاث حملات متتالية على المدينة باءت بالفشل. تتابعت الحملات على المدينة، إلا أنها قاومت الحصار الصليبي وهجمات الحملات المختلفة مدة عشر سنوات. وعندما دخلوها، قتلوا من فيها ودمروا وأحرقوا معالمها وطال حقدهم المكتبة الشهيرة المعروفة بدار العلم او مكتبة بني عمار، فأحرقوها كاملة وكان ذلك

(١) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، مرجع سابق (ص٢٣).

بين سنة ٥٠٢ و٥٠٣هـ (١١٠٩م - ١١١٠م)[1].

لم تتوقف المحاولات من قبل العرب، لاسترجاع مدينة طرابلس، حتى فتحت المدينة على يد السلطان المنصور قلاوون في سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م[2]، الذي جعلها عاصمة لنيابة السلطنة، وأصبح أسمها في زمن المماليك «المملكة الطرابلسية الشريفة المحروسة».

فبعد استيلاء السلطان المنصور على المدينة، أمر بتدمير ما تبقى منها ودكّها للأرض وتخريب سورها، وموقع هذه المدينة في الميناء، وهي منطقة معروفة بالخراب حتى الآن، بالرغم من مرور سبع قرون على طرد الصليبيين.

وهكذا فإن إجلاء الصليبيين عن طرابلس اقترن بتدميرها، وكان هذا الفتح نقطة تحول في تاريخ المدينة، إذ اندثرت المدينة الفينيقية القديمة، لتقوم بعد ذلك المدينة المحدثة بالقرب من قلعة «صنجيل»[3] على بعد ميلين من المدينة القديمة المدمرة، في وادي يعرف بوادي الكنائس على ضفتي النهر[4]، وكان هذا رأياً عسكريذاً جيداً، لحماية المدينة الجديدة من هجمات الأساطيل

(١) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، مرجع سابق (ص٣١٨).

(٢) محمد كامل بابا، طرابلس في التاريخ، جروس برس، طرابلس، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م (ص١٨ - ١٩)؛ وسميح وجيه الزين، تاريخ طرابلس قديماً وحديثاً، دار الأندلس، بيروت، ط١، ١٩٦٩م (ص١٤٥)؛ وشذا جميل عدرة، دليل طرابلس الحضاري، د.ن، ط١، طرابلس، لبنان، تشرين الأول، أكتوبر، ١٩٩٦م (ص١٩)؛ والسيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق (ص٧)؛ وفاروق حبلص، طرابلس، المساجد والكنائس، دار الإنشاء للصحافة والطباعة والنشر، ط١، ١٩٨٨م (ص١٣ و١٧).

(٣) معروفة بهذا الاسم نسبة إلى القائد التولوزي ريموند دي سان جيل الذي بنى حصناً فوقها عام ١١٠٣م، وهي في الأصل بناها القائد العربي سفيان بن مجيب الأزدي عام ٦٣٦م. انظر: عمر عبد السلام تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٨١م (٢/ ٣٣٤ - ٣٣٥)؛ وعمر عبد السلام تدمري، محلات طرابلس القديمة مواقعها، أسماؤها، سكانها من خلال الوثائق العثمانية، دراسة قُدِمت في المؤتمر الأول لتاريخ ولاية طرابلس إبان الحقبة العثمانية (١٥١٦ - ١٩١٨م)، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الفرع الثالث، ١٩٩٥م (ص١٠٦).

(٤) عمر عبد السلام تدمري، وظائف ومضامين النقوش التأريخية والتزيينيّة على عمارة طرابلس المملوكية، مرجع سابق (ص٢٩).

البحرية، وأول بناء شاده هو الجامع الكبير الذي أطلق عليه اسم «الجامع المنصوري الكبير»[١] نسبة للسلطان المنصور قلاوون، وقد أقيم له أربعة أبواب كل منها يطل على حي من أحياء المدينة الجديدة[٢].

وهكذا فإن المدينة القديمة هي مدينة مملوكية صرفة بعمرانها، وعماراتها، وخططها، ونظام بنائها، وأسواقها، وأزقتها وبتأسيس مساجدها، ومدارسها، وزواياها، وتكاياها، وحماماتها، وقياسرها، وبتوزيع أبراجها، وبواباتها وأسبل مياهها، ومارستانها وخانقاها....

إن كثافة المساجد والخانات وما يتبعها، الموجودة في طرابلس ليس لها مثيل في المدن اللبنانية، بل إن ذلك يجعل من طرابلس مدينة فريدة من نوعها في العالم.

ثم إن طرابلس تنفرد بين جميع المدن اللبنانية بوجود الخانقاه، بيت الزهاد، الذي جمع بين الوظيفتين الدينية والحربية، ففيه تنقطع الصوفية للاعتكاف والعبادة، ويخرجون في طليعة المقاتلين، عندما تستدعي الحاجة للدفاع في سبيل الله[٣].

وهكذا عادت طرابلس الفيحاء، مدينة عربية اسلامية، وثغراً صامداً من ثغور العروبة والإسلام بعد أن أقام بها الصليبيون ١٨٠ سنة ميلادية (١٨٥ عاماً هجرية)[٤]، دمرت فيها كل معالم طرابلس القديمة، لتحيا مع العروبة والإسلام بحلة جديدة، فاستحقت عن جدارة لقب «قلعة العروبة ومدينة العلماء».

---

(١) وهو الجامع المنصوري الكبير. شيّده السلطان المملوكي الأشرف خليل ابن السلطان قلاوون سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٤م، في طرابلس على الضفة اليسرى لنهر أبي علي، وقد جاء ذلك في نقش موجود عليه. انظر: يحيى بن أبي الصفا بن أحمد المعروف بابن محاسن، المنازل المحاسنية في الرحلة الطرابلسية، دراسة وتحقيق: محمد عدنان البخيت، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م (ص٨١)؛ والسيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق (ص٤٠٠ ـ ٤٠٧).

(٢) محمد كامل بابا، طرابلس في التاريخ، المرجع السابق (ص٨٢ ـ ٩٠).

(٣) عمر تدمري؛ تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك، راجعه وقدّم له: سماحة الشيخ نديم الجسر مفتي طرابلس، مطابع دار البلاد، طرابلس، لبنان، ١٩٧٤م (ص٣٤٠ ـ ٣٤١).

(٤) عمر تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري عبر العصور، مرجع سابق (ص٤٢٦).

القسم الثاني: خصائص العمران الإسلامي والمملوكي

أولاً: مفهوم العمران الإسلامي والمدينة في الإسلام:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: ٧٤].

من خلال هذه الآية، والعديد من الآيات الأخرى، والأحاديث النبوية نجد تأكيد على الصلة الوثيقة بين الإسلام وعمارة الأرض، كما أعطت من جانب آخر، بالإضافة لاجتهاد الفقهاء، معايير عامة شكلت العديد من الجوانب التطبيقية يلتزم بها المسلمون في عمارة مدنهم ومبانيهم[١].

فلم يكن في بلاد العرب قبل الإسلام، الكثير من المباني والعمائر المميزة، مثل تلك التي كانت موجودة في الحضارة المصرية القديمة، أو كالتي اشتهرت في الحضارتين الإغريقية والرومانية، وكانت الكعبة المكرمة ـ على الرغم من بساطة مبناها ـ شهرة ومكانة تفوق أي مبنى معماري آخر[٢].

وبظهور الإسلام، كان التركيز في البداية على تكوين الجماعة المسلمة، وتأصيل عبادة الله، وعقيدة التوحيد في نفوس المسلمين الأوائل، وغلب على الجماعة الإسلامية في هذه الفترة البساطة، وخشونة العيش، والتفرغ لنشر الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ولم يعرف عن العمارة في ذلك العهد سوى مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة، وتم بناؤه من اللبن وتسقيفه بجذوع النخل، وأتت مساجد الإسلام الأولى على النمط نفسه من البساطة كمسجدي البصرة والكوفة[٣].

وعندما استقرت دعائم الدولة الإسلامية، انعكس ذلك على الفنون والعمارة. فالعمارة الإسلامية تنتمي إلى الحضارة الإسلامية؛ لأن العمارة من

---

(١) يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، عالم المعرفة، الكويت، يونيو، ٢٠٠٤م (ص٢٧).

(٢) المرجع السابق (ص٢٠).

(٣) المرجع السابق (ص٢١).

أهم مظاهر الحضارة. والإسلامية منها ثمرة من ثمار الإسلام بل نتاج حضارة الإسلام والمسلمين جميعاً. أسهمت في إنشائها وتطويرها الشعوب الإسلامية في أقاليم الإسلام، من مشرقها الى مغربها[١].

لقد بذل المسلمون جهودهم في كافة العهود والأقاليم لإعمار المدن، وإشادة البنيان، خدمةً للعقيدة، وتلبيةً لحاجات الحياة.

ولم يدّخروا وسعاً في تزيين العمائر وتجميلها، وتوفير أسباب الراحة والرفاه. معبرين عن فطرة الإنسان في ميله للزينة وحبه للفن.

وتخلّف عن هذه الجهود تراث ضخم في كميته وتنوعه، غني بقيمه، انتشر على مدى من الأرض لم تبلغها أية حضارة أخرى، وعلى فترة زمنية بلغت قرابة أربعة عشر قرناً. وهذا التراث اليوم موطن فخر واعتزاز أهله، وموضع إعجاب وتقدير واهتمام من الأمم الأخرى، لا سيما منهم، أهل العلم والثقافة والاختصاص.

تأثرت الحضارة الإسلامية في طور نشأتها بالحضارات السابقة، فكانت ظاهرة الاقتباس وتمازج الثقافات، وهي ظاهرة صحية محمودة؛ لأن من مزايا الإنسان المتحضر أن يستفيد من مكتسبات الآخرين، ويأخذ عمن تقدموه، ثم يثابر فينتج ويبتكر.

ومع توالي العهود وتقلب الدول، تتطور العمارة الإسلامية، وتستمر محاولات التجدد والابتكار، وتغيب شيئاً فشيئاً العناصر المقتبسة أو تتبدل، لتحل محلها عناصر جديدة، نجد آثارها في الثروة الهائلة من الأشكال التخطيطية والعناصر المعمارية والزخرفية التي يزخر بها التراث المعماري الإسلامي، مما يؤكد أصالة العمارة الإسلامية ويوطد شخصيتها المتميزة.

ويعتبر الحاكم والفنان هما سبب التطور والتجديد في العمارة

---

(١) عبد القادر الريحاوي، قمم عالمية، منشورات وزارة الثقافة السورية، سوريا، ٢٠٠٠م (ص٣١).

الإسلامية[١]، فكان التنافس بين حكام المسلمين على البناء والإعمار، ويتجلى ذلك بشكل خاص في الحماس لإنشاء المدن والحواضر وإعمارها أو بتزويدها بمنشآت جديدة تحمل أسماءهم.

والمعمار والفنان، أصحاب الشخصية التي صقلتها الثقافة الإسلامية بكل أبعادها، استهانا بالجهد والوقت، وعملوا بطموح لا حد له، متنافسين على خلق شيء جديد لم يكن معروفاً من قبل.

تميزت الحضارة الإسلامية، بتنوع المدارس الفنية، فكان ذلك طبيعيّاً لاختلاف الأقاليم الإسلامية من حيث التقاليد الموروثة أو من حيث الطبيعة والمناخ ومواد البناء، أو من حيث التطور الزمني وارتقاء الأذواق والمفاهيم والخبرات، أو من خلال ظهور حاجات جديدة ثقافية أو صحية أو تجارية.

أخذت قضية بناء السكن وتطويره الكثير من اهتمام الإنسان، في كل زمان ومكان. وكان الهدف من وراء تلك الجهود المبذولة في هذا الصدد، تحقيق حاجة الإنسان في الحصول على البيت الذي يوفر له الأمن والراحة والاستقرار. ثم سعى بأن يجد فيه كذلك الرفاهية والجمال وكان تحقيق هذه الأغراض يختلف باختلاف الزمان والبيئة ومستوى الفرد، من حيث الفقر والغنى. لكنه يعبر دائماً عن المظهر الثقافي والحضاري للأسرة والمجتمع، فهو الخلية الأساسية للمدينة ومحور نموها وتنظيمها وتطورها.

كان طبيعيّاً أن يتأثر البيت العربي بالدين الجديد، كما تأثرت العمارة والفنون وأسلوب الحياة. فالبيت التقليدي، المنفتح نحو الداخل، ذا الفناء والحجرات المحيطة به، يلاءم مبادئ الإسلام واتجاهاته الاجتماعية والدينية، وخاصةً ما يتعلق منها بالمرأة.

ثانياً: حرمة المنزل دينيّاً وفقهيّاً:

إن الإسلام قد أعطى الفرد كامل الحرية في اتخاذ المسكن الذي يراه مناسباً له، ما دام لم يضر بالآخرين أو يتعسف في استعمال حقه في التملك.

---

(١) عبد القادر الريحاوي، المرجع السابق (ص٣٧).

فللمنزل حرمة معينة وحصانة خاصة يجب احترامها وعدم التعدي عليها، فتردع مطلق إنسان من الاعتداء عليه أو اقتحامه أو دخوله بدون استئذان صاحبه، وفي هذا يقول الله جل جلاله في القرآن الكريم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [النور: ٢٧، ٢٨].

وهكذا أمر الله عز وجل بالاستئذان عند دخول مساكن الغير، كما حرم الدخول إليها في غياب أصحابها، وبينت السُّنَّة النبوية الشريفة العلة في طلب الاستئذان قبل دخول بيوت الآخرين. إذ جاء رسول الله ﷺ رجلاً توقف قبالة الباب فرآه النبي فقال له: «**إنما جعل الاستئذان من أجل البصر**»(١).

وهناك العديد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة التي توجب على المسلمين عامةً الالتزام ببعض المبادئ الأخلاقية:

﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾ [الحجرات: ١٢].

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾ [الأحزاب: ٥٨].

وعن معاوية رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**إنك إن اتبعت عورات المسلمين أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم**»(٢).

ويقول عليه الصلاة والسلام: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره**»(٣).

«**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته يفضحه ولو كان في بيته**».

---

(١) صحيح مسلم (٦/١٨١).
(٢) رواه ابن حبان.
(٣) صحيح مسلم (١/٤٩).

فأحكام الشريعة تمنع التعدي على الآخرين وخاصةً على حرمة الجار، وهناك العديد من الكتب الفقهية التي تتناول في أبوابها ضرورة الحفاظ على الجيرة وآدابها؛ لأن المسلمين جميعاً أخوة، ولكل منزل حرمته.

فقد نهى الإسلام عن التنصت والتجسس على بيوت ومساكن الآخرين بأي وسيلة من الوسائل، لما في هذا المسلك الشائن من انتهاك لحرمة المساكن ومعرفة أسرارها وأسرار أصحابها من جهة، ولمخالفته للأخلاق الحميدة التي أمر بها الإسلام من جهة أخرى.

ثالثاً: الحارات والتضامن العائلي والاجتماعي:

كان الجامع المنصوري الكبير، على ما يبدو من الخريطة القديمة للمدينة، النقطة المركزية التي استقطبت الأسواق والحارات حيث بدأت تنشأ حوله، في الوقت الذي تمّ فيه بناؤه على الصورة التي لا يزال عليها إلى اليوم. ومن ثم بدأت كل حارة أو محلة تنهض على شكل أزقة تتفرع من مجرى السوق الأساسي، إما لتتصل بسوق رئيسي آخر يتوازى مع السوق الذي بدأت منه، أو تشكّل مع زقاق آخر زاوية تصنع من نفسها ساحة تصغر أو تكبر على قدر عدد الأزقة، حسب المساحة المتشكلة من تقاطعاتها.

يكاد المسجد (الجامع) أن يكون الأصل في بناء المدينة، فمن حوله تُشاد الأسواق والحوانيت وتتركز في محيطه جميع الأنشطة الإجتماعية والاقتصادية وحتى الدينية، ليضم رجال الدين والعلماء والتجار الحرفيين.

استمرت هذه الحارات المنشأة على جوانب الجامع الكبير، بالامتداد في كافة الاتجاهات التي تسمح بالتمدد، ولحق بكل حارة المنشآت الأساسية والضرورية، التي تشكل النسيج الذي ترتسم عليه العلاقات الاجتماعية اليومية، وهي الجامع والمدرسة وسبيل المياه، الملحقة جميعاً بالسوق الذي يشكل عصب الحياة الاقتصادية لأهل الحارة ومصدر عيشهم(١).

---

(١) مها كيال وعاطف عطية، تحولات الزمن الأخير، مختارات ش.م.م.، لبنان، ط١، ٢٠٠١م (ص٥٨ ـ ٥٩).

ونجد أن المحلات[١] كانت مكتفية بذاتها في نمط حياتها، وفي حركة التفاعل اليومي في قضايا الانتاج والاستهلاك والسكن، وفي شؤون الممارسة اليومية للإيمان الديني، فنجد في المحلة الواحدة الدكاكين التي تؤمن لساكنيها كل احتياجاتهم، وتقارب المسكن مع أماكن العبادة، فيستطيع المرء أن يقوم بالتجارة والبيع دون أن يؤثر ذلك على تأديته للفرائض الدينية، وحتى المدرسة كانت ملاصقة للمسجد، ولم تكن الحمامات معروفة داخل المنازل، فكانت الحمامات العامة منتشرة في المحلات، وكان لها صلة بالدين، فقد حث الإسلام على النظافة، فكانت تستقبل الرجال وخصصت أوقاتاً أخرى للنساء.

لقد كان السكن في محلة أو حارة من حارات المدينة، يعطي الفرد الشعور بالقوة والانتماء إلى إطار مميز، بما يعزز الشعور بالتضامن الاجتماعي.

للأحياء السكنية في المدينة الإسلامية خاصتان هامتان: ترابط العلاقة بين أماكن السكن والفوارق الدينية العرقية، وميل أبناء الدين الواحد أو المحلة الواحدة إلى التجمع معاً والإقامة في حي واحد، من أجل التماسك والاستقلال النسبي.

فنجد أن المناطق أو الأحياء كانت تُسمى باسم ديني معيّن أو باسم صاحب حرفة او مهنة معينة (حارة النصارى، حارة اليهود، حارة النحاسين، حارة الحدادين).

والأحياء الخارجية أو الضواحي، كانت تشكل مناطق للقوافل وللوافدين الجدد والغرباء، وتقع على أطراف المدينة وخارج بوابات المدينة.

كانت العائلات تقيم في بيت واحد ولا ينفصل فيها الفرد، هو وأسرته، عن عائلته، إلا عندما يصبح البيت العائلي غير قادر على سعة كافة أسر العائلة. ففي هذا البيت كان الأب هو المسؤول الفعلي عن إدارة شؤون أسرته اجتماعيّاً واقتصاديّاً. ويعيش في كنفه الأبناء وزوجاتهم اللواتي هن أيضاً

(١) جمع: محلّة.

يخضعن لإدارة رب الأسرة، من خلال زوجته، المديرة الاجتماعية والاقتصادية لأمور عالمها العائلي.

اعتبر الدار (الداخل) للمرأة، والأسواق والمحلات (الخارج) للرجل، فانقسم المجتمع الطرابلسي الى عالمين «عالم النساء» و«عالم الرجال». فعالم النساء هو الدار الذي يعتبر المقر الأساسي لهذا العالم وفناء الدار، يمكن اعتباره، بأنه المكان الوحيد الذي تستطيع المرأة من خلاله التواصل مع العالم الخارجي بدون حجاب فحتى الفتحات أو المشربيات كانت تغطيها الشعريات، ولا يدخل هذا الفناء إلا رجال العائلة وحتى هؤلاء لا يدخلونها في العادة إلا بعد الإعلان عن قدومهم إما بإغلاق الباب بشكل لافت، أو النحنحة، أو المناداة: (يا ساتر).

في ظل هذا النظام المركب، نجد أن الرجال عموماً يخرجون عند الصباح، ولا يعودون إلا عند المساء، حتى طعامهم يرسل إليهم في أماكن عملهم، التي هي في الغالب دكاكين حرفية أو تجارية في السوق، الذي هو عالم الرجال حيث الدكاكين المتلاصقة والترابط العائلي في ممارسة المهنة والحرفة الواحدة. هذا النظام التقسيمي في المجتمع جعل الكل يعيش مع الكل من جنسه والكل يعرف الكل. فالمجتمع في طرابلس كان مجتمعاً شديد التواصل القرابي، شديد التقارب السكني وشديد الانفتاح الاجتماعي. الكل يعرف بأفراح الكل ويشارك فيها، والكل يساند الكل في الأحزان أو في حال ألمّت بأحدهم مصيبة[١].

رابعاً: المساجد والمدارس:

رافق اتساع رقعة المدينة، حركة ملفتة للنظر في الإكثار من بناء المساجد الجامعة والمدارس التي كانت بمثابة مساجد صغيرة، زاد عددها في طرابلس بشكل يندر مثيله إلا في أمهات المدن الإسلامية. وتعتبر طرابلس أكثر مدن لبنان كثافة بالمساجد والمدارس، وهذا يرجع إلى إنها كانت عاصمة نيابة

(١) مها كيال وعاطف عطية، المرجع السابق (ص١٠٠ ـ ١٠١ ـ ١٠٢).

السلطنة حيث يقيم الأمراء وينزل فيها سلاطين المماليك أثناء رحلاتهم الى الشام، فتسابق نواب السلطنة الذين تولوها، في بناء المساجد والمدارس والزوايا والتكايا والخانقاه وغيرها من المباني التي تضفي على المدينة المستجدة الطابع الإسلامي، وكذلك فعل أمراؤها وأثرياؤها، حتى استرجعت صبغتها التي كانت عليها قبل خضوعها للاحتلال الصليبي، إذ أكثَر الصليبيون أثناء حكمهم لها من بناء الكنائس والأديرة، حتى عُرِف الربض القائم بالقرب من النهر بـ«وادي الكنائس».

وقد لاحظ الشيخ عبد الغني النابلسي أثناء زيارته لطرابلس، كثرة المساجد والمدارس فيها، فأثبت ذلك في رحلته إليها، منذ ما يقرب من ثلاثة قرون، فقال: «إن ببلدة طرابلس المحمية مدارس وزوايا ومساجد لا تعد ولا تحصى». ثم يضيف إلى ذلك ما سمع من أهلها: «إنه كان بها ٣٦٠ مدرسة»[١].

ومما يلفت النظر في مدارس مدينة طرابلس، في العصر المملوكي، أنها كانت تتركز أغلبها في مكان واحد، حول الجامع المنصوري الكبير، من ذلك على سبيل المثال المدرسة الشمسية، والمدرسة الناصرية، والخيرية حسن، والمدرسة النورية، والطواشية، والقرطائية، والمشهد، وعلى مقربة منهم السقرقية والخاتونية. ولعل السبب في تركيز تلك المدارس في هذه المنطقة راجع إلى الجامع المنصوري الكبير، كما ذكرنا سابقاً، كان أول جامع أقيم بمدينة طرابلس المحدثة، فكان يتوسط مدينة طرابلس، وكانت تحيط به جميع المرافق من أسواق، وحمامات وخانات.

لعبت المدارس دوراً هاماً كمؤسسات تعليمية، والفقهاء من المسلمين هم حفظة العلم، والقائمين عليه؛ كذلك لعبت الأوقاف المحسوبة على تلك المدارس، دوراً هاماً في ازدهار الحياة العلمية، والثقافية، واستمرارها في العصر المملوكي.

---

(١) عمر عبد السلام تدمري، تاريخ طرابلس السياسي والحضاري، مرجع سابق (ص٢٥٨).

خامساً: الأسواق والحرف:

تميزت الأسواق في طرابلس، بأنها تمتعت باختصاص مهني قوي، ومركز جغرافي محدد، ويعتبر الميل للتجمع في مكان واحد، ميزة تقليدية لتنظيم العمل في مدن الشام، والمدينة الإسلامية بشكل عام. ويلاحظ «ماسينيون» أن هذه الميزة تمتعت بثبات واضح منذ ظهور الإسلام حيث قامت المدينة على فكرة السوق الذي يحتوي الحرف المهنية. وكون كل مهنة تحتل مكاناً خاصّاً لها في المدينة، فقد كان اسم المهنة يحمل دلالات على **ثلاث صعد:**

١ ـ السوق الذي يجتمع فيه الحرفيون والتجار الذين يمارسون تلك المهنة.

٢ ـ التنظيم الحرفي الذي يجمع بينهم وينظم عملهم، بحيث يمثل المكان الجغرافي، المدى العملاني لهذا التنظيم.

٣ ـ المكان الذي يرتبط بشكل ثابت باسم نوع النشاط الاقتصادي الذي يمارس فيه ويتأسس عليه، بغض النظر عن التغيير الذي يكون قد أصاب نوع النشاط الاقتصادي الممارس فيه.

ظهرت المهن المتخصصة في أسواق خاصة بها، وتوزعت الأسواق على محلات المدينة وعلى حاراتها. وكانت الأسواق تكتسب شهرتها من الحركة فيها، فيؤدي ذلك إلى ارتفاع شأن المحلات والحارات الموجودة فيها، لدرجة أن أعطتها أسمها. وتوزعت المحلة على عدة أسواق، أو اشتركت أكثر من محلّة في سوق واحد، حسب امتداد هذا السوق وحجمه. فظهرت الأسواق المعروفة بسوق النحاسين، وسوق البازركان، وسوق الكندرجية، وسوق العطارين، والصياغين، والحدادين، وسوق الخضرة، والسمك، وخان الخياطين، وسوق حراج وغيرها...

إن عدد الأسواق والخانات الموجودة في طرابلس، يدل على أهميتها الاقتصادية، ولما كان السوق هو عالم الرجال، فقد كان مركز توزيع الأخبار التي تشكل حصيلة تفاعلات أبناء المحلّة ونتائج تحركاتهم اليومية. وبهذه

الطريقة كان الكل يعرف الكل، وعلى دراية بكافة نشاطاته وأفعاله العادية والحميمة. والكل، في الوقت نفسه، لا علاقة له بالكل، إلا بما تفرضه العلاقات الاجتماعية والاقتصادية واحدية الجانب على مستوى الذكور والإناث[1].

القسم الثالث: المنزل الطرابلسي ومواصفاته

إن البحث حول البيت الطرابلسي، في العهد المملوكي، تواجهه صعوبات مع أن أكثرية بيوت طرابلس القديمة تعود إلى العهد المملوكي، إلا أن تلك البيوت قد طالتها الحداثة، فأصبح البيت الواحد يُهدم لتقوم مكانه عمارة من عدة طوابق، فمن خلال الجولات الميدانية على تلك البيوت داخل طرابلس القديمة وأزقتها، وزيارة عدد من الدور القديمة التي ما زالت تحتفظ ببعض معالمها، وبالعودة إلى سجلات محكمة طرابلس الشرعية، والتي لم تتناول تلك الحقبة التي نبحث فيها، فالسجلات تعود للعهد العثماني تبدأ في سنة ١٦٦٦م وتمتد حتى ١٨٨٣م. ولكن بالعودة إلى التاريخ، نجد أن تلك البيوت ظلت تتمتع بصفتها المملوكية.

ونجد من خلال بحثنا أن تلك البيوت لم تُبنى عشوائيّاً، فقد أوجد المصمم المسلم، من خلال الخبرات التي اكتسبها من عملية التحضر، وبناء المدن، ونماذج للمسكن الذي يعبر عن احتياجات المسلم في مختلف بلاد العالم الإسلامي، بالإضافة إلى تأثر المسكن العربي والإسلامي بالتوجيهات الدينية والعادات الشرقية، خاصةً عامل الخصوصية والستر، إلى جانب مراعاة العوامل البيئية والمناخية، إلى تميزه ببعض الخصائص العامة. وقد أصبحت البيوت في العهد المملوكي أكثر إشراقاً وجمالاً؛ كنتيجة لما حدث من تطور على الفنون والعمارة، التي انتقلت من حال التقشف التي كانت عليه في العهد الأيوبي، لتحقق المزيد من التجديد والتنويع في العناصر، والإسراف في الزينة

(١) عبد الغني عماد، مجتمع طرابلس في زمن التحولات العثمانية، دار الإنشاء، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م (ص١٧٩ ـ ١٨٠).

والزخرفة. وكان ذلك تعبيراً عن الترف والرفاه الذي نتج عن انتهاء الحروب الصليبية، والازدهار الاقتصادي الذي عرفته البلاد في أكثر أيام العهد المملوكي. أصبحت العمائر ترفل في الزينة والزخرفة، داخلاً وخارجاً. ولم يدع الفنان مكاناً في الأرض والسقوف والجدران إلا وكساه بعنصر زخرفي. والملاحظ أن الفن الذي ترسخ في العهد المملوكي في حقل العمارة والزخرفة وبناء البيوت، قد استمر لقرن أو أكثر، حيث نجد آثاره في البيوت والعمائر المشيدة في أوائل العهد العثماني.

كان يطلق على مكان السكن اسم دار في أغلب الأحيان، وقد استخدمت كلمة بيت للدلالة على الشيء نفسه؛ كذلك استخدمت قليلاً كلمة حوش، ولكن للدلالة على مكان متسع او أكثر من دار واحدة.

ومن المواصفات التي يتميز بها البيت العربي، سماكة جدرانه، مما يساعد على التخفيف من وطأة الحر والبرد. علماً بأنه لا يتعرض للجو الخارجي سوى جزء محدود من البيت، بسبب اندماج الأجزاء الأخرى مع الجوار.

ومن تقاليد البيت العربي، أن لا تكون له غير واجهة واحدة او اثنتين بسبب اتصاله مع البيوت المجاورة. وتتصف الواجهات الخارجية للبيت بالبساطة في عناصره المعمارية والزخرفية، إذا ما قورنت بما في الداخل من عناية وجمال فني. وهي خالية من الفتحات المطلة على الخارج، إلا من نوافذ ضيّقة جُعلت فوق مستوى الرؤية في الطابق الأرضي. أما نوافذ الطابق العلوي فقد وضع لها حواجز تسمح للنور والهواء بالدخول منها وتسمى بالمشربيات. وأغلب الدور في طرابلس كانت تتكوّن من طابقين، يصعد من الأول إلى الثاني بسلم حجري أو خشبي. وهي تتألف من وحدات سكنية تحيط بالفناء (الصحن أو الفسحة السماوية) تتوسطها بركة أو شجرة يلفها أشجار مثمرة كالتوت والمشمش.

وتتكوّن تلك البيوت من:

١ ـ الدهليز الذي يصل بين باب البناء الخارجي والداخلي، وغالباً ما

يكون ملتوياً ومظلماً. فهو لا يؤدي إلى فناء المنزل مباشرة، بل يوصل إلى رحبة مربعة، ومنها إلى ردهة، وتلك بدورها تؤدي إلى الفناء، وذلك حتى لا تنكشف فسحة البيت ومن فيها، على المارة عند فتح الباب الخارجي.

٢ ـ الفسحة الداخلية السماوية وهي عبارة عن فناء مكشوف، والفناء جمعه أفنية، وفنى هو باحة ـ ساحة ـ صحن؛ أي: ما اتسع من الدار[١]، ويعتبر قلب الدار الرئيسي، الذي تلتف حوله جميع العناصر، والفراغات الرئيسية للمنزل، وهو ملازم لكل بيت، وعادةً ما كان يحتوي على حديقة ونافورة لتلطيف الجو داخل هذا الفناء، وحيث كان يلعب دوراً أساسيّاً كمنظم لدرجات الحرارة داخل المسكن.

٣ ـ فسقية: وهي عبارة عن نافورة مياه تقام في وسط حوض الماء.

٤ ـ الإيوان أو التختبوش: وكان يتواجد بالدور الأرضي، وهو عبارة عن مساحة مسقوفة، يكون مرتفعاً عن الفسحة، تطل على الفناء الداخلي، وكان يستخدم لاستقبال الضيوف من الرجال.

٥ ـ مربع: ويستعمل للاستقبال في بعض الأحيان او للمبيت خاصةً أيام الشتاء، وهو أيضاً مرتفع عن مستوى فسحة الدار بحوالي ربع المتر أو نصفه وهو مربع الشكل.

٦ ـ طبقة: غرفة أو أوده يتوصل إلى كل منها على درج، وليست بالضرورة فوق بعضها البعض، بل قد تتوزع يميناً وشمالاً، وهي مسقوفة بالجذوع والأخشاب ولهذه الطبقة كوات. والكوة هي عبارة عن فتحة صغيرة في أعلى الجدار، تطل إما على فسحة الدار، أو على الطريق، أو على السوق.

٧ ـ المقعد: ويقع في الدور الأول، وهو عبارة عن مكان مخصص لاستقبال الضيوف من الرجال صيفاً، ويطل على الفناء الداخلي من خلال واجهة ذات عقدين يتوسطهما عمود، وكان هذا المقعد غالباً ما يواجه الشمال

(١) عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الاسلامية، جروس بروس، بيروت، ١٩٨٨م (ص٣٠٦).

(أو ينحرف عنه قليلاً في بعض الأحيان) من أجل استقبال الرياح المحببة، التي عادةً ما تأتي من الجهة البحرية[١].

٨ ـ تميز البيت العربي بوجود قاعة رئيسية للرجال، وأخرى للحريم. وغالباً ما يأتي تصميم هذه القاعة على هيئة إيوانين يتوسطهما جزء منخفض يسمى بالدور قاعة وبه نافورة، ويعلوها شخشيخة بالسقف، يخرج منها الهواء الدافئ، ليحل محله الهواء البارد، الذي كان يدخل إلى القاعة عن طريق ملقف للهواء، أو عن طريق المشربيات والنوافذ التي تطل على الفناء الداخلي المظلل[٢].

٩ ـ المنزول: قد يرجع مصدر هذا المصطلح إلى كلمة منزل، وهي مكان نزول القوم ويعرف المنزول أيضاً بالإيوان.

١٠ ـ كلار او كيلار: بداخل المطبخ كلار معقود بالمون والأحجار. والكلار هو المخزن الذي تحفظ فيه حوائج البيت. وليس بالضرورة أن يكون الكلار داخل المطبخ، قد يحتل غرفة مستقلة.

١١ ـ مصيف ـ طيارة: يعلو المطبخ والكلار مصيف. والمصيف قد يكون سطح المنزل، أو قد يكون عبارة عن غرفة من غير سقف؛ لأنه غالباً ما ترد هذه العبارة مقترنة بصفة «مصيف سماوي». قد يكون هذا المصطلح مشتق من كلمة صيف؛ لأن استعماله يكون عادةً أيام الصيف.

كما يرد أيضاً مصطلح طيارة، والطيارة عبارة عن غرفة تبنى من البيوت القرميدية السقوف، وقد تسقف بالقرميد وتكون صغيرة الحجم، كثيرة الفتحات، تستعمل عادةً للنوم أو السهر أيام الحر، يتوصل إليها بسلم داخلي، هي إذن مكان مرتفع للإقامة أو المبيت.

١٢ ـ الكنيف أو المرحاض: وهو موجود أكثر الأحيان داخل المطبخ وفي صدره، أو قد نجده أيضاً في جانب من فسحة الدار. وهو عبارة عن

(١) يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، مرجع سابق (ص١٧١).
(٢) يحيى وزيري، المرجع السابق (ص١٧١ ـ ١٧٢).

ثلاثة جدر لا يصل علوها إلى سقف البيت، وباب خشبي، وعادةً ما تكون مرتفعة عن المطبخ أو عن مستوى الفسحة بحوالي النصف متر.

ويتردد أن الاستحمام لم يكن يتم في المنزل، بل كان النساء أيضاً يذهبن إلى الحمامات العامة. أما الأطفال فكانوا يستحمون في المطبخ.

١٣ ـ خزينة: يمكن أن تكون الخزينة غرفة للسكن، أو غرفة لخزن المؤون، أو حوائج البيت.

١٤ ـ البايكة أو البائكة: وتعني مجموعة الأعمدة المتباعدة على خط مستقيم والموصولة بأقواس في أعلاها لتحمل السقف.

١٥ ـ متخت: يختلف شكل المتخت ومكانه، فهو تارة يعلو الإيوان، وطوراً أخرى فوق الممشى، ومرة بجانب السلم ومرة أخرى يتوسط الإيوان.

١٦ ـ ممشا: عبارة عن ممر صغير مسقوف يوصل بين الغرف.

١٧ ـ كشك: بناء يقام في حديقة البيت لاستقبال الضيوف، وهو شبه رواق بارز عن بقية المنزل.

هذه هي عناصر البيت العربي أو الطرابلسي المملوكي، ونظراً للحرمة التي تمتع بها المنزل، كانت شبابيك الدور الواسعة والتي تزود غرف البيت بالضوء والهواء تفتح على الصحن الداخلي، و«الصحن جمعه صحون فيأتي بمعنى الفناء وصحن الدار؛ أي: وسطها، وهو عبارة عن مساحة مكشوفة ومسورة»[(١)].

أما شبابيك الدار الخارجية أو الكوة، فهي ضيقة ومرتفعة بالجدران الخارجية إذا ما فتحت فيها، وخضع ذلك لضرورة مناخية من جهة، دينية واجتماعية من جهة أخرى، فلا يجوز من الناحية الإسلامية أن يتعرض داخل الدار لأنظار الفضوليين من خارجه، فهي مصممة بالشكل الذي يتصل بالخارج دون العكس، والمفصحة عن وجود عالم آخر داخل هذه الجدران لا يتصل بالخارج إلا عبر الأبواب الموصدة، وعبر النوافذ المشبكة، الشعريات أو

(١) عبد الرحيم غالب، موسوعة العمارة الإسلامية، مرجع سابق (ص٢٤٠).

المشربيات، وفي الوقت نفسه لا يقبل أن تشرف النوافذ الخارجية على حرم البيوت المجاورة.

لم يكن التأثير الديني قد طال فقط حرمة المنزل وبيوت الغير، فلقد كان لاتجاه القبلة واحترامها تأثير كبير على عمارة المساكن حتى في العهود التي كانت قبل الإسلام، ونلمح هذا الأمر الإلٰهي في قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: ٨٧]؛ أي: أن الله ﷻ قد أمرهم أن يجعلوا بيوتهم قِبل القبلة، وفي قول آخر أمرهم أن يجعلوا بيوتهم مساجد مستقبلة الكعبة يصلون فيها سرّاً[(١)]، خوفاً من قوم فرعون. ويظهر هذا التأثير القوي لاحترام اتجاه القبلة في أماكن متعددة من العالم الإسلامي. ومن المألوف ألا ينام المسلم متجهاً برجليه باتجاه مكة المكرمة، ولا يوجد المرحاض أيضاً باتجاهها، وكل هذه المتطلبات أخذت في الاعتبار عند تصميم غرف المعيشة والخدمات بالموقع، لذلك فإن المفاهيم قد أثرت بعمق في تخطيط المسكن والمدينة[(٢)].



(١) تفسير ابن كثير، الآية (٨٧) من سورة يونس، دار الفيحاء، دمشق، ط١، ١٩٩٢م (٢/ ٤٧٠).

(٢) يحيى وزيري، العمارة الإسلامية والبيئة، مرجع سابق (ص٤١).